

2003

تأويل الشعر في مجالس السماع الصوفية عند الغزالي

كامل يوسف عثوم

كلية التربية ببحار، قسم اللغة العربية، سلطنة عمان

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#), and the [Poetry Commons](#)

Recommended Citation

"تأويل الشعر في مجالس السماع الصوفية عند الغزالي" (2003) كامل يوسف عثوم, *Dirassat*. Vol. 11 , Article 13.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol11/iss11/13>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

تأويل الشعر في مجالس السماع الصوفية عند الغزالي

د. كامل يوسف عتوم

كلية التربية بصحار

قسم اللغة العربية

سلطنة عُمان

ملخص

يحاول هذا البحث التعرف على تأويل الشعر في مجالس السماع الصوفية. وذلك من خلال وجهة نظر الغزالي، وفلسفته في التأويل، وعرضه لفعاليات تلك المجالس. وقد قدمت الدراسة مدخلا حول طبيعة التأويل الصوفي عند الغزالي، وتناولت دور التأويل في عملية السماع، وبعض النماذج التطبيقية، ومعيار التأويل الديني، وآلية التأويل، وعرضت أخيرا أبرز النتائج.

1- اتصف النص الشعري الحديث بمصادره الثقافية المتنوعة، ودلالته الجديدة، وعمقه وغموضه، وهذا الواقع استفز المتلقي، واستنفره، وأمتعته، وأثار أحيانا حنقه، فالنص لم يعد يقدم نفسه إلا من خلال كد الذهن، والنظر والتفكير، واستحضار الغائب، وفتح أبواب الباطن.

ولعل التوقف عند التأويل في التراث، ومحاولة استنطاقه، وسبر أغواره، يزيد من وعينا بإشكالات التأويل المعاصر للشعر، ويساعد الناقد في الكشف عن مرتكزات تأويل فاعلة في الولوج إلى عالم النص، ومن هذا التوجه يحاول هذا البحث دراسة تأويل الشعر في مجالس السماع الصوفية عند الغزالي (ت 505 هـ).

2 - يبدو أن معالجة الغزالي لتأويل الشعر في مجالس السماع الصوفية قد خضعت لفلسفة الغزالي في التأويل الصوفي، وهذا يتطلب مدخلا يبين التأويل الصوفي عنده، رغم محاذير الإبحار في هذا المقام.

رأى الغزالي أن التأويل الباطني يكشف الكثير من معاني القرآن الكريم، تلك المعاني الدقيقة التي يعجز عن كشفها أفاضل المفسرين، فإذا اطلع المفسرون على ذلك "استحسنوه وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية" (1)؛ على أن الغزالي لم ينتقص من أهمية علم الظاهر، وقد قال: «ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. ومن ادعى فهم أسرار القرآن، ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب» (2)، وقد حذر الغزالي من صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنية، دون اعتصام فيه بدليل نقلي، أو دون ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، وهذه التحذيرات لم تمنع الغزالي من تأكيد أهمية التأويل، مسترشدا بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس (ت 68 هـ) رضي الله عنهما: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" (3).

لقد اتخذت المعرفة الباطنية من التأويل الصوفي وسيلة من وسائل تحقيقها، والمعرفة الباطنية عند الغزالي نور يقذفه الله في القلب (4)، وذلك حين يتم تطهير القلب تنقيته، حيث تتولد المعرفة الحقيقية، وتوضح "جليه الحق... اتصاحا يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه" (5). ويأتي التأويل الباطني عند الغزالي على سبيل الإلهام، أو الرؤيا الصادقة، أو كشف المعاني في اليقظة (6)، ويرتبط في مدى تحقيقه بأحوال المريدين ومقاماتهم، ودرجاتهم في معارجهم (7).

(1) - الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص 71/1 -.

(2) - المصدر نفسه، ص 291/1.

(3) - المصدر نفسه، ص 37/1. وانظر الحديث ابن حنبل، الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993، ص 409/1. ويعرف الغزالي التأويل بأنه "عبارة عن احتمال بعضه دليل، يصير به، أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز". الغزالي أبو حامد: المستصفى من علم الأصول، تحقيق محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1997، ص 49/2. وحول مصطلح التراث في التأويل انظر عبد الغفار، السيد أحمد: ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1980، ص 15-65.

(4) - الغزالي، أبو حامد: المنقذ من الضلال، مكتبة النشر العربي، دمشق، ط 2، 1934، ص 74.

(5) - الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 19/1-20.

(6) - المصدر نفسه، ص 82/1.

(7) - المصدر نفسه، ص 71/1. وحول معارج الصوفية ومقاماتهم انظر الغزالي، أبو حامد: معارج السالكين، (ضمن

وقد أكد الغزالي أهمية المجاهدة، ودورها في دخول المرید دائرة الكشف والتأويل، فالمجاهدة رياضة روحية بدنية، وهي مقدمة الهداية ومفتاحها (8)، وتقضي إلى المشاهدة، وتفجر ينابيع الحكمة (9)، وتأتي أهميتها من قدراتها على تصفية القلب (10)، وتمكينه من "الاستكشاف وملاحظته أسرار الملكوت" (11). وللقلب عند الغزالي وجهان أو بابان: باب إلى الظاهر، وهو عالم الشهادة، وباب إلى الباطن، وهو عالم الغيب (12)، والقلب في حكم المرأة، تزداد إشراقاً وجلالاً بفعل الآثار المحمودة، وتزداد ظلمة بفعل الآثار المذمومة (13).

إن رحلة المجاهدة التي تصفي القلب تمكن الصوفي من التأويل، أو العبور من عالم الظاهر (عالم الملك أو الأعمال أو الشهادة المدرك بالحواس) إلى عالم الباطن (عالم الملكوت أو العقائد والقلوب أو الغيب المدرك بنور البصيرة) (14).

وقد جعل الغزالي جميع المظاهر الحسية رموزاً وإشارات لمعان في عالم الغيب، وقال: "ما من شيء في عالم الملك والشهادة إلا وهو مثال لأمر روحاني من عالم الملكوت، ... فيستحيل الترقى إلى عالم الأرواح إلا بمثال عالم الأجسام" (15). وبين الغزالي أن عالم الشهادة الذي تتخذ منه طينة الأمثال يقابل عالم الملكوت الذي تنزل منه أرواح المعاني، وأن عالم الشهادة مرقى إلى عالم الملكوت (16)، يحاكيه نوع من

مجموعة رسائل الغزالي (1)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، والغزالي أبو حامد: روضة الطالبين وعمدة السالكين (ضمن مجموعة رسائل الغزالي (2))، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1994، ص 17. والقشيري، أبو القاسم: الرسالة القشيرية، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1990، ص 57، وأبو زيد، نصر حامد: فلسفة التأويل،

(8) - المصدر نفسه، ص 23/1، 39. وحول مفهوم المجاهدة انظر القشيري: الرسالة القشيرية، ص 97-101.

(9) - المصدر نفسه، ص 71/1.

(10) - الغزالي: المنقذ من الضلال، ص 129.

(11) - الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 293/2.

(12) - المصدر نفسه، ص 26/3، 40. وانظر الغزالي، أبو حامد: كيمياء السعادة، (ضمن مجموعة رسائل الغزالي (5))، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1988، ص 135.

(13) - المصدر نفسه، ص 12/3. وانظر الغزالي، أبو حامد: جواهر القرآن، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1987، ص 1.

(14) - المصدر نفسه، ص 121/1، وانظر الغزالي، أبو حامد: مشكاة الأنوار (ضمن مجموعة رسائل الغزالي (4))، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1994، ص 17.

(15) - الغزالي: جواهر القرآن، ص 28. وانظر الغزالي: مشكاة الأنوار، ص 18.

(16) - الغزالي: مشكاة الأنوار، ص 17-18.

المحاكاة على قرب أو بعد (17)؛ فيتم " العبور من شيء إلى غيره، ومن ظاهر إلى سر " (18).
وعالم الشهادة عند الغزالي بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشرة بالإضافة إلى
اللب (19)، ولفظ القشرة هنا لا ينتقص من أهمية الظاهر، أحد ركني الوجود والكلام،
ومناطق العبور والتأويل، فالظاهر - كما يرى الغزالي - يتمم الباطن كما اللب القشر (20).
وقد وصف الغزالي العلاقة بين العالمين (عالم الملك وعالم الملكوت) بالدقة واللفظ،
دون أن يوحد بينهما، وقال: " لطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض
الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة، وهو هذه
الأجسام المحسوسة، ومن أدرك الأمرين، وأدرك تعددهما، ثم ارتباطهما، عبر عنه،
فقال:

رق الزجاج ورقّت وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر (21)

3 - تأثرت معالجة الغزالي لتأويل الشعر في مجالس السماع الصوفية بنزعته
الباطنية الصوفية، تلك النزعة التي ترى في كل المظاهر الحسية - بما فيها الشعر -
رموزاً، يتم من خلالها العبور إلى الباطن المستكن فيها.

ولم يتناول الغزالي تأويل الشعر في موضوعات مستقلة، بل جاء جل ذلك في ثنايا
حديثه عن السماع الصوفي؛ وموضوع السماع عند الغزالي وعند غيره من الصوفية لم
ينل عناية من الدارسين في مجال قراءة الشعر، رغم أن السماع لم يكن مجرد غناء أو
وجد ورقص. فالسماع عند الغزالي "صوت طيب موزون، مفهوم المعنى، محرك للقلب"
(22)، والشعر هو ذلك المفهوم الموزون (23)، و "أول درجة السماع فهم المسموع، وتنزيله

(17) - المصدر نفسه، ص 9.

(18) - المصدر نفسه، ص 21.

(19) المصدر نفسه، ص 9.

(20) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 103/1. ورغم أهمية القشر فإن مطلب المريد هو ذلك اللب، ويقول الغزالي: "من لم
يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور، ولكن عذره
غير مقبول". الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 340/4.

(21) المصدر نفسه، ص 121/1.

(22) المصدر نفسه، ص 270 /2.

(23) المصدر نفسه، ص 282/2.

على معنى يقع للمستمع، ثم يثمر الفهم الوجد، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح⁽²⁴⁾. والفهم في السماع الصوفي لا يعني دلالة اللغوية فحسب، بل أصبح مرادفاً للتأويل، أو العبور من الظاهر إلى الباطن، وقد أكد أهل التصوف قبل الغزالي ضرورة تحقق عنصر الفهم أو التأويل في السماع، فهم في سماعهم عند رويم بن أحمد (ت 303 هـ) "يشهدون المعاني التي تعزب عن غيرهم"⁽²⁵⁾، وهم عند أبي علي أحمد الروذباري (ت 323 هـ) يكشفون الأسرار⁽²⁶⁾، وفي السماع عند سعيد بن الأعرابي (ت 340 هـ) "رفع الحجاب، ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب"⁽²⁷⁾، والمريد في سماعه عند بندار بن الحسين (ت 353 هـ) "يتأمل ما يرد عليه من ذكر عتاب أو خطاب، أو وصل أو هجر، .."⁽²⁸⁾

ورأى الغزالي أن الشعر عنصر ضروري وفاعل في اكتمال السماع الصوفي، وميدان مفضل للتأويل، وذلك لوزن الشعر، ومُشَاكَلَتِهِ الطباع، ولما تحمله لغة الشعر من إشارات ولطائف⁽²⁹⁾. وإذا كان "الحال" عند الصوفية "معنى يرد على القلب"⁽³⁰⁾، فإن الشعر هو الذي يعرب عن هذا الحال، ومن هنا قال الغزالي: "الآبيات إنما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب"⁽³¹⁾، فإن الشعر هو الذي يعرب عن هذا الحال، ومن هنا قال الغزالي: "الآبيات إنما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب"⁽³²⁾، وقال: "إن البيت الغريب يهيج منها (القلوب) ما لا تهيج تلاوة القرآن"⁽³³⁾.

إن المريد قد يجد في سماعه ما يصلح للعبور إلى عالمه الباطني، وما يثير حالات عشقه، وما يزيد من سعيه للترقّي، ويقول الغزالي: إن المريد "ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى، .. فإن للمريد لا محالة مراداً هو مقصده، ومقصده معرفة الله سبحانه، ولقاؤه، والوصول إليه، .. فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب، أو قبول أو رد، أو وصل أو هجر، أو قرب أو بعد، أو تلهف على فائت، أو تعطش إلى

(24) المصدر نفسه، ص 287/2.

(25) القشيري: الرسالة القشيرية، ص 341-342.

(26) المصدر نفسه، ص 343.

(27) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 292/2.

(28) القشيري: الرسالة القشيرية، ص 343.

(29) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 301/2.

(30) المصدر نفسه، ص 288/2.

(31) القشيري: الرسالة القشيرية، ص 57.

(32) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 298/2.

(33) المصدر نفسه، ص 301/2.

منتظر، أو شوق إلى وارد، أو طمع أو يأس، أو وحشة أو استئناس، أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد، أو خوف فراق أو فرح بوصول، أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب، أو همول العبرات أو ترادف الحسرات، أو طول الفراق أو عدة الوصال، أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار، فلا بد أن يوافق بعضها حال المريد في طلبه⁽³⁴⁾. وذكروا ما أورده الغزالي بقول الطوسي (ت 387هـ): "ومن يسمع بحاله فإنه يتأمل إذا سمع، حتى يرد عليه معنى ... فإذا طرق سمعه من ذلك حال، مما يواقف حاله، فيكون كالقادر يقدح في سره، على قدر صفاء وقته، وقوة قادحه"⁽³⁵⁾، وقول السهروردي (ت 563هـ): "فالسامع من الشعر بيتا يأخذ معنى يذكره ربه، إما فرحا أو حزنا أو افتقارا"⁽³⁶⁾؛ وبذلك فإن المريد إذا سمع شعرا لا يوافق حاله، فإنه - كما يرى الغزالي - "يستدعي غيره، فيبس كل كلام موافقا لكل حال"⁽³⁷⁾.

4 - ونتوقف عند الجانب التطبيقي لعملية تأويل الشعر في السماع، حيث رأى الغزالي أن "حكايات أهل السماع" تكشف عن "كيفية فهم المعاني من الأبيات"⁽³⁸⁾. فقد أورد الغزالي قول أحدهم:

واقف في الماء عطشا ن، ولكن ليس يسقى

وذكر أن بعض الصوفيين قد رأوا في البيت السابق إشارة إلى "التعطش إلى الأحوال الشريفة، والحرمان منها مع حضور أسبابها"، وقال أحد المريدين: "أن يكون في وسط الأحوال، ويكرم بالكرامات، ولا يعطى منها ذرة"، ووضح الغزالي تفاوت رتبة المتعطش بقوله: "إن المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها، فإن مكن منها تعطش إلى ما وراءها"⁽³⁹⁾. فالتأويل الصوفي للشعر جعل من الماء رمزا للأحوال الشريفة، ثم زاد من الانزياح عن الظاهر، حيث منح حالة العطش سمة الديمومة، وسلب السقي خاصيته المؤدية إلى الارتواء.

(34) المصدر نفسه، ص 287/2-288.

(35) الطوسي، أبو نصر السراج: اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960، ص 349.

(36) السهروردي، الإمام عمر بن محمد: عوارف المعارف (ملحق بكتاب الغزالي، إحياء علوم الدين)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص 111/5.

(37) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 300/2.

(38) المصدر نفسه، ص 288/2.

(39) المصدر نفسه، ص 290/2.

وعرض الغزالي حالة العبور والانزياح في معنى "الزيارة"، فقد ذكر أن بعضهم سمع قائلًا يقول:

قال الرسول: غدا تزور فقلت: تعقل ما تقول

حيث كرر المريد قول الشاعر، وجعل مكان التاء نونا: فقال: "قال الرسول: غدا نزور"، وحينما أفاق سئل عن وجده، فقال: تذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن أهل الجنة يزورون ربهم كل يوم جمعة مرة"⁽⁴⁰⁾، فالمؤول "يلغي ظاهر الخطاب لكي يمتلك ما يعتبره باطنه"⁽⁴¹⁾.

وبين الغزالي عملية الانتقال من الظاهر إلى الباطن في تواجد بعض المريدين على غناء جارية تقول:

كل يوم تتلون ؟ غير هذا بك أحسن

حيث قال: "لعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوبه إلى التلون في قبوله ورده، وتقريبه وإبعاده"، ولكن المريد قال: "هذا تلوني مع الحق في حالي"، وهذا يعني - كما يرى الغزالي - أن المريد "كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى، ومعرفة عجزه ... وتأسفه على تقلب قلبه، وميله عن سنن الحق، فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى، كأنه يخاطبه"⁽⁴²⁾. فقد أصبح التلون صفة للمحب المريد بعد أن كان صفة للمحبيب، واتجه الخطاب من عالم الغيب إلى عالم الشهادة بعد أن كان من الشاعر إلى محبوبه في عالم الظاهر.

ويوضح الغزالي تنوع القراءات للبيت الواحد في مجالس السماع، وذلك من خلال البيت الذي تواجد عليه الشبلي (ت 334هـ):

ودادكم هجر، وحبكم قلى ووصلكم صرم، وسلمكم حرب

(40) المصدر نفسه، ص 288/2. والحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وفيه عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين، مختلف فيه، وانظر الترمذي، عيسى بن محمد: سنن الترمذي، إعداد الشيخ هشام البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1995، ص 685/4.

(41) عبد الحق، منتصف: اللغة وإشكالية التأويل عند محي الدين بن عربي، مجلة الوحدة، الرباط، عدد 9، 1989، ص 128.

(42) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 288/2 - 289.

فهناك قراءة تتم في عالم الشهادة، وهي عند الغزالي: " أن يفهم هذا في الخلق، بل في الدنيا بأسرها، بل في كل ما سوى الله تعالى، فإن الدنيا مكاراة خداعة، قتالة لأربابها، معادية لهم في الباطن، ومظهرة صورة الود، .. وكما قال الثعالبي (ت⁴²⁹ هـ) في وصف الدنيا:

ولا تخطبن قتالة من تناكح	تنح عن الدنيا فلا تخطبها
ومكروها أما تأملت راجح	فليس يقي مرجوها بمخوفها
وعندي لها وصف لعمري صالح	لقد قال فيها الواصفون فأكثرها
شهى إذا استدلتته فهو جامع	سلاف قصارها زعاف ومركب
ولكن له أسرار سوء قبائح ⁽⁴³⁾	وشخص جميل يوثر الناس

وهناك قراءة أخرى، وذلك حين يجد المريد مصداق هذا البيت في نفسه، فيرى أن معرفته جهل، وطاعته رياء، وحبه معلول. وقد يقرأ المريد البيت، وينزله في حق الله تعالى، شكاية من القضاء والقدر، وهذا عند الغزالي كفر⁽⁴⁴⁾.

لقد انتهى الغزالي إلى أنه لا يوجد بيت من الشعر إلا ويمكن تأويله على معان متنوعة، وفق سعة علم المؤول، وصفاء قلبه⁽⁴⁵⁾، وتبعاً لاختلاف أحواله. فقد يختلف الفهم عند مستمعين لبيت واحد، فيصيب كلاهما، ومن ذلك - كما ذكر الغزالي - أن أحد المريدين "سمع رجلاً يقول:

سبحان جبار السما إن المحب لفي عنا

فقال: صدقت، وسمعه رجل آخر، فقال: كذبت، فقال بعض ذوي البصائر: أصابا جميعاً، وهو الحق، فالتصديق كلام محب غير ممكن من المراد، بل مصدود متعب بالصد والهجر، والتكذيب كلام مستأنس بالمحب، مستلذ لما يقاسيه، بسبب فرط حبه، غير متأثر به، أو كلام محب غير مصدود عن مراده في الحال، ولا مستشعر بخطر الصد في المال، وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه، فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم"⁽⁴⁶⁾.

(43) انظر الثعالبي، أبو منصور: ديوان الثعالبي، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1988، ص 41.

(44) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 290/2.

(45) المصدر نفسه، ص 290/2-291.

(46) المصدر نفسه، ص 289/2-290.

5 - ويحدثنا الغزالي عن "درجة الصديقين في الفهم" (47)، وصاحب هذه الدرجة أقفل عن غير الله سمعه وبصره (48)، "وعزب عن فهم ما سوى الله تعالى، حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش، .. وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فني عن نفسه" (49)، حيث يصل القلب إلى رتبة عالية من الصفاء، والقلب إذا صفا عند الغزالي "ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة، أو في لفظ منظوم يقرع سمعه" (50).

وقد لا يستطيع المؤول الصوفي التعبير عن المعنى الباطني؛ فالوجد عند الغزالي ينقسم إلى "ما يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه، وإلى ما لا تمكن العبارة منه أصلاً"، حيث أعاد عدم قدرة المريد إلى دقة المعنى في نفسه، أو إلى تحقق حالة لا يصادف المريد لها عبارة مفصحة عن المقصود، أو بسبب نسيان الشيء الذي تفكر فيه، وبقاء الأثر في نفسه (51).

ولعل حركة المريد الناتجة عن السماع تعويض عن عدم القدرة على التعبير، ويرى أحد الباحثين أن "الحركة اللاإرادية، أو التواجد عند سماع الأشعار، يفضح الإشارة أو المعنى الباطني، المتولد عند سماع الصوفي للشعر. وما الحركة إلا شكل من أشكال تقلت هذا المعنى، حينما يفتقر إلى المعادل الموضوعي، .. فالحركة أو الصوت أو الصمت أشكال تأويلية غير لغوية" (52).

إن التأويل دون تعبير ينبئ عن حضوره وخطره من خلال ما يصيب المريد المؤول من وجد، أو حركة قد تؤدي إلى الموت؛ لنصبح أمام مؤول لا نفهم تأويله إلا إذا دخلنا في مخاطرة "تأويل التأويل". وذكر الغزالي أن أبا الحسين النوري (ت 295هـ) سمع هذا البيت:

مازلت أنزل من وداك منزلاً تتحير الألباب عند نزوله

(47) المصدر نفسه، ص 291/2.

(48) المصدر نفسه، ص 268/2.

(49) المصدر نفسه، ص 291/2.

(50) المصدر نفسه، ص 293/2.

(51) المصدر نفسه، ص 293-295. ويرى القشيري أن سكوت الصوفي ربما يكون بسبب ما سماه "حيرة البديهة"، وذلك في حالة الكشف المفاجئ، القشيري: الرسالة القشيرية، ص 121.

(52) عودة، أمين يوسف: تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية - ابن عربي، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، الأردن، ط 1، 1995، ص 88-89.

"فقام وتواجد، وهام على وجهه، فوق في أجمة قصب قد قطع، وبقيت أصوله مثل السيوف، فصار يعدو فيها، ويعيد البيت إلى الغداة، والدم يخرج من رجليه، حتى ورمت قدماء وساقاه، وعاش بعد ذلك أياما، ومات رحمه الله" (53).

6 - وخضع تأويل الشعر في مجالس السماع لمعيار ديني، تمثل في التحذير من التأويل المؤدي إلى المس بصفات الله تعالى، فحث الغزالي المؤول الصوفي على معرفة أسماء الله وصفاته، حتى لا يؤول المسموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز (54). وتحذيرات الغزالي تعكس تصويره العام الذي يحذر من مخالفة الباطن للظاهر، خاصة في مجال تأويل القرآن الكريم، والغزالي لم يبتعد عن فحوى تحذيرات الصوفية في مجالس السماع، فقد قال الطوسي (ت 378هـ): "لا يصح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله تعالى وصفاته، حتى يضيف إلى الله ما هو أولى به" (55).

إن تأثير التأويل الخاطئ للشعر عند الغزالي على المريد أشد خطورة من تأثير الشعر المحرك للشهوة، وقد قال: "في هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة، فإن غاية ذلك معصية، وغاية الخطأ هنا كفر" (56).

والحديث عن المعيار الديني المسلط على تأويل الشعر عند الغزالي يذكرنا بمعياره الديني الأخلاقي للشعر في عالم الظاهر، حيث حذر في غير مرة من أثر الشعر الغزلي إذا كان حسيا صريحا (57)؛ ولكن تحذيره من السمات الحسية للغزل اقتصر على تداول مثل هذا الشعر في مجالس العامة؛ لأن "بواطنهم مشحونة بالشهوات، .. فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها"، أما في مجالس الخواص الصوفية فلا ضرورة للمعايرة الأخلاقية؛ لأن قلوبهم عند الغزالي مستغرقة بحب الله تعالى، و "أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهرة إلى الخلق، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولي على قلبه" (58).

7- إن دخول الشعر دائرة التأويل يعني موافقة ذلك الشعر لحال المريد في عشقه المستولي على قلبه، والموافقة تنطوي دون شك على ما ظفر به المستمع من علائق

(53) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 291/2.

(54) المصدر نفسه، ص 302/2.

(55) الطوسي: اللع، ص 359.

(56) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 289/2.

(57) المصدر نفسه، ص 36/1، 282/2، 228/3.

(58) المصدر نفسه، ص 35-36. وحول المعيار الأخلاقي للشعر عند الغزالي انظر عتوم، كامل يوسف: المعيار

المشابهة (59). وقد اتخذت مجالس السماع الصوفية من لغة الغزل رموزاً للعبور إلى الباطن، عبر تلك العلائق التي نقلت ألفاظ الغزل إلى مستوى إشاري، وقال الغزالي: "لا يظن الجاهل أن المستمع لأبيات فيها ذكر الفم والصدغ، إنما يفهم منها ظواهرها" (60). وأشار الغزالي إلى دور الاستبدال بالاستعارة في تأويل المريد للشعر، وذلك باستخدام ألفاظ الغزل، حيث قال: "إن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه، .. إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيهه على معان بطريق الاستعارة، فالذي يغلب على قلبه حب الله تعالى، يتذكر بسواد الصدغ مثلاً ظلمة الفكر، وبنضارة الخد نور الإيمان، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين، وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا، وآفات المشوشة لدوام الأنس بالله تعالى" (61). وكل ذلك يتم في ظل إيمان الغزالي بأن للألفاظ وجهين من الدلالة، فهناك "وجه من الدلالة على الأشياء الجسمانية، .. والوجه الثاني الدلالة على معاني الجسمانيات وأرواحها، إما بطريق وضع اللغة، وإما بالمجاز والاستعارة" (61)، والمجاز يثير المتلقي، ويدعوه إلى التأويل (62)، وطبيعة الشعر المجازية تجعله ميداناً مفضلاً لعبور الصوفي إلى الباطن، فالصوفي في معرجه عند الغزالي يترقى من "حضيض المجاز إلى ذروة الحقيقة" (63)، والترقي من المجاز إلى المعنى هو التأويل، "والمجاز انحراف عن الحقيقة، ولا تتم عملية تقويم هذا الانحراف إلا بالتأويل، أي بإرجاع المعنى المجازي إلى ما يتضمنه من معنى حقيقي مبطن فيه" (64).

الأخلاقي في نقد الشعر عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة اليرموك، 1998، ص 180-182.

(59) ويرى الغزالي أن الشعر يوقع في النفس، وذلك من خلال تشبيه الأشياء، بعضها ببعض. الغزالي: معراج السالكين، ص 153. ولا يذكر الشعر من وجهة نظر الغزالي المنطقية لإفادة علم أو ظن، وإنما يفيد في ترغيب المتلقي أو ترهيبه، وتنفيذه أو تسخيته، وهذا لا يعني عنده أن كل الشعر كذب وباطل، وقد قال: "فقد يدرج الحق في وزن الشعر، فلا يخرج عن كونه حقاً، كقول الشاعر:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فهذا كلام حق صادق، ومؤثر في النفس، .. فلا ننظر إلى صورة الشعر، ولاحظ المعاني في الأمور كلها، لتكون على الصراط المستقيم". الغزالي، أبو حامد: معيار في فن المنطق، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1978، ص 136-138.

(60) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 288/2.

(61) المصدر نفسه، ص 282/2.

(62) الغزالي: معراج السالكين، ص 84.

(63) شبيل الحبيب: من النص إلى سلطة التأويل، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 88-89، 1991، ص 92. والمجاز كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها. الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات، تحقيق عبد الحليم الحنفي، دار الرشيد، القاهرة، 1991، ص 229.

(64) الغزالي: مشكاة الأنوار، ص 11.

إن المتلقي عند الغزالي "قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ، والمحقق إذا نظر ..
تفطن لدرك السر والباطن، فيتفاوت الناس في ذلك، ومن هذا قال الشاعر :
رجلان خياط وآخر حائك متقابلان على السماك الأعزل
لا زال ينسج ذاك خرقة مدبر ويخيط صاحبه ثياب المقبل

فإنه عبر عن سبب سماوي في الإقبال والإدبار برجلين صانعين، وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله" (65).

8- لقد تأثر تأويل الشعر في مجالس السماع الصوفية بفلسفة الصوفية في التأويل الباطني، حيث جعلوا من الظاهر رموزاً أو إشارات لمعان باطنية، تتفاوت درجاتها، وفق ترقى المريـد في مدارج المعرفة، وجعلوا من تأويل الشعور عبوراً من "ظاهر (عالم الشهادة) إلى الباطن (عالم الغيب) المستكن فيه.
وأظهر الغزالي أن الصوفية قد أعلوا من سلطة المتلقي في مجالس السماع (66)، فالمتلقي يتجاوز دلالات الشعر الظاهرية، ويمنحها ما يؤمن به من دلالات باطنية، تتعلق بحقائق عميقة، وأسرار بعيدة. وتأويل الشعر يخضع لتخيل المتلقي؛ لأن فهم المتلقي - كما يرى الغزالي - "بحسب تخيله، وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد الشاعر ولغته" (67)، وهذا ما أكده الغزالي في غير مرة، فقد قال: "وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه، بل لكل كلام وجوه، ولكل ذي فهم في اقتباس المعنى منه حظوظ" (68)، وقال: "وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده" (69).

ونلاحظ أن قراءات الشعر قد تنوعت في مجالس السماع، وذلك بسبب اختلاف أحوال المريـد، ودرجته في سلوكه ومعارجه، ومدى موافقة الشعر لحاله في عشقه، بحيث يكون الشعر في أحسن نماذجه بالنسبة للمريـد، حينما "يجري ذلك مجرى القدر

(65) عودة، أمين يوسف: تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية - ابن عربي، ص 72.

(66) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 102/1.

(67) حول سلطة القارئ والنص والتأويل في الدراسات المعاصرة انظر عبد الرحمن، عبد الهادي: سلطة النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1983. تامر، فاضل: من سلطة النص إلى سلطة القراءة، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 48، 1988، ص 89. نور الدين، صدوق: في النص وتفسير النص، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 76-77، ص 66.

شبيب، الحبيب: من النص إلى سلطة التأويل، ص 90.

(68) الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 282-283.

(69) المصدر نفسه، ص 288/2.

الذي يوري زناد قلبه" (70). كما تأثرت درجات التأويل "بقدر غزارة علم المستمع، وصفاء قلبه" (71)، وذكائه وتيقظه، وتفتنه للمعاني البعيدة (72). إن هذا التفاوت أدى لا محالة إلى تنوع القراءات، وهذا ما سماه الغزالي: "تفاوت الدرجات في فهم المسموعات" (73).

لقد منح التأويل الصوفي في مجالس السماع معاني الشعر مزيدا من الاغتراب، والانحراف عن المألوف، فاكسب الشعر قيما جديدة، وآفاقا رحبة، وفضاءات دلالية متنوعة، وغير متناهية؛ لأن عالم الباطن عند الغزالي "بحر لا يدرك عمقه" (74)، "وسبيل السلوك إلى الله غير متناه، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال" (75).

- (70) المصدر نفسه، ص 300/2. ويقول الجنيد: "ينطقون من حيث قصدهم، .. لا من حيث قول الشاعر". السفاريني، الشيخ محمد: غذاء الألباب، مؤسسة قرطبة، ط 2، 1993، ص 164. ويقول الطوسي: "لا يخطر ببالهم قصد الشاعر في شعره". الطوسي: اللع، ص 370.
- (71) المصدر نفسه، ص 288/2.
- (72) المصدر نفسه، ص 290/2-291.
- (73) المصدر نفسه، ص 299/2. ويرى السهروردي أن التأويل "يختلف باختلاف حال المؤول .. من صفاء الفهم، ورتبة المعرفة". السهروردي: عوارف المعارف، ص 5.
- (74) المصدر نفسه، ص 292/2.
- (75) المصدر نفسه، ص 71/1.

المصادر والمراجع

- 1- الترمذي، عيسى بن محمد: سنن الترمذي، إعداد الشيخ هشام البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1995.
- 2- ثامر، فاضل: من سلطة النص إلى سلطة القراءة، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 48، 1988.
- 3- الثعالبي، أبو منصور: ديوان الثعالبي، عالم الكتب، بيروت، ط 1، 1988.
- 4- الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات، تحقيق عبدالحليم الحنفي، دار الرشيد، القاهرة، 1991.
- 5- ابن حنبل، الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993.
- 6- أبو زيد، نصر حامد: فلسفة التأويل، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1983.
- 7- السفاريني، الشيخ محمد: غذاء الألباب، مؤسسة قرطبة، ط 2، 1993.
- 8- السهروردي، الإمام عمر بن محمد: عوارف المعارف (ملحق بكتاب الغزالي، إحياء علوم الدين)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
- 9- شبيل، الحبيب: من النص إلى سلطة التأويل، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 88-89، 1991.
- 10- الطوسي، أبو نصر السراج: اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960.
- 11- عبدالحق، منصف، اللغة وإشكالية التأويل عند محيي الدين عربي، مجلة الوحدة، الرباط، عدد 9، 1989.
- 12- عبد الرحمن، عبد الهادي: سلطة النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1983.
- 13- عبد الغفار، السيد أحمد: ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعية،

- الإسكندرية، 1980.
- 14- عتوم، كامل يوسف: المعيار الأخلاقي في نقد الشعر عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة اليرموك، 1998.
- 15- عودة أمين يوسف: تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية - ابن عربي، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، الأردن، ط 1، 1995.
- 16- الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
- 17- الغزالي: جواهر القرآن، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1978.
- 18- الغزالي: روضة الطالبين وعمدة السالكين (ضمن مجموعة رسائل الغزالي⁽²⁾)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1994.
- 19- الغزالي: كيمياء السعادة (ضمن مجموعة رسائل الغزالي⁽⁶⁾)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1988.
- 20 - الغزالي: المستصفى من علم الأصول، تحقيق سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1997.
- 21 - الغزالي: مشكاة الأنوار (ضمن مجموعة رسائل الغزالي⁽⁴⁾)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1994.
- 22 - الغزالي: معراج السالكين (ضمن مجموعة رسائل الغزالي⁽¹¹⁾)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.
- 23 - الغزالي: معيار العلم في فن المنطق، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1978.
- 24 - الغزالي: المنقذ من الضلال، مكتبة النشر العربي، دمشق، ط 2، 1934.
- 25 - القشيري، أبو القاسم: الرسالة القشيرية، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1990.
- 26 - نور الدين، صدوق: في النص وتفسير النص، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 76-77، 1990.

A I- Chazali's Interpretation Of poetry In Sufist Chanting Sessions

Abstract

This study aims to examine Al-Ghazali's interpretation of poetry in sufist chanting sessions by looking at his point of view and philosophy towards interpretation and discussing his presentation of the various activities in these sessions.

The study offers an entry to understanding the nature of AL-Ghazali's sufist intrpretation and the role of in the Interpretation process of chanting through some pratical samples: It also addresses itself to the criteria in religions interpretation and the mechanisms employed in this process. Finally, the study present the most important findings.